

العنوان:	الشيخ أبو محمد عبدالله بن وانودين : نموذج لعلاقة المخزن الموحدي باحد رجالاتة 585 - 646 هـ
المصدر:	أشغال الأيام الوطنية الثانية عشرة - السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي
الناشر:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي
المؤلف الرئيسي:	أنوار، ابراهيم
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2004
مكان انعقاد المؤتمر:	مراكش
الهيئة المسؤولة:	الجمعية المغربية للبحث التاريخي - المغرب
الشهر:	أكتوبر
الصفحات:	25 - 44
رقم MD:	600201
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex, EcoLink
مواضيع:	الدولة الموحدية ، الملوك و الأمراء ، ابن وانودين، عبدالله ، السلطة السياسية ، المغرب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/600201

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الشيخ أبو محمد عبد الله بن وانودين
نموذج لعلاقة المخزن الموحدي بأحد رجالاته
(585-646 هـ)

إبراهيم أنوار
باحث - الرباط

إن وضع فترة من تاريخ أمة تحت المجهر من خلال رجالاتها يعتبر من الصعوبة بمكان، لما تطرحه من مشاكل، تتعلق باختيار الشخصية، والمنهج الذي تعالج من خلاله، والمادة التاريخية الخام. لكن الذي يشفع لهذا التوجه أن أحداث الأمم هي في نهاية المطاف نتاج تفاعل مصالح أبنائها. فالتفاعل بين الواقع الموضوعي، وبين الأشخاص بكل مكوناتهم الموضوعية، والذاتية، يسمح بالنظر، عن قرب إلى بعض الموضوعات والقضايا، لكنه في نفس الوقت يخفي مؤقتا، بل يحجب إلى الأبد قضايا أخرى. ولتجاوز هذه المطارحات واقتحام الموضوع لابد من رصده في الزمن، وتوطينه في المجال، حتى يتيسر ضبط علاقات أطرافه في الواقع. وعليه فإن الفترة موضوع التحليل، تمتد من 603هـ، تاريخ مباشرة عبد الله بن وانودين لأول مهمة في الجهاز المخزني، وهو شاب يافع، إلى 646هـ عام وفاته بجبال هنتاتة. وهي مدة تكاد تستغرق ثلث حياة الدولة الموحدية. وتصادف بداية المتاعب في الأطراف التي دشنتها مناوشات بني غانية في المغربين الأدنى والأوسط والتي جعلت أسس قيام الدولة تتآكل، وجعلت التوازنات التي قامت عليها تختل، لتتهاوى مع مرور الأيام حتى أفضى بها الأمر إلى ما أفضى من الزوال، وقيام دول على أنقاضها في مجموع الغرب الإسلامي.

كما يمكن أن نوطن داخل هذا الحيز الزمني فترة قصيرة تهم تقلبات الرجل الكبرى داخل الجهاز المخزني الموحدي، والتي بدأت عام 625هـ، وانتهت بوفاته 646هـ، أي عقدين من الزمن، عرف خلالهما أبو محمد عبد الله بن وانودين تحولات في المواقف من الخلفاء الموحدين، وتقلبات في المجال بين الشمال والجنوب،وتغييرات في التحالفات، بين الروم (المليشيات المسيحية) وزعماء القبائل العربية.

سنحاول رصد هذه التحولات بتتبعها،ومحاولة البحث في علاقات الرجل بالقوى الضاغطة لمقاربتها،وفهمها من خلال قراءة في عصره. فمن هو عبدالله ابن وانودين ؟

أبو محمد عبد الله بن وانودين :

من المحتمل جدا أن يكون من مواليد منتصف ثمانينات القرن 6 هـ/ 12 م، استنادا إلى نص ورد في **البيان المعرب** لابن عذاري[1] الذي ذكر وجوده ضمن المجموعة التي رافقت عبد الواحد بن عمر الهنتاتي، عندما اختير من قبل الناصر، نائبا عن الخليفة على إفريقية، لرد خطر بني غانية وهو «إذاك في حال الشبيبة » وذلك عام 603هـ. فكان ذلك أول ظهور له على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية. وبقي في جملة من الهنتاتيين إلى جانب أبي محمد عبد الواحد إلى حين وفاة الأخير عام 618 هـ. ليرجع إلى مراكش، ويقيم فيها بجوار الكاتب أبي الحسن علي السرقسطي، ويعمل على الأرجح ابتداء من عام 625 هـ وزيرا ليحيى المعتصم بن الناصر (625- 633 هـ)، ويتخلى عنه عندما بدأ نجمه في الأفول ويلتحق بعبد الواحد الرشيد (629- 640 هـ)، وذلك عام 632 هـ، والذي عينه واليا على بلاد درعة.

استطاع بحنكته ونسجه لشبكة علاقات وبنائه لتحالفات، أن يطرد أبا محمد عبد العزيز المستبد بسجلماسة، ويقيم فيها واليا إلى عام 634 هـ ليعود ثانية إلى مراكش، ويعينه الرشيد واليا على الجهة الغربية، ويتخذ من مدينة قصر كتامة

(1) ابن عذاري المراكشي، **البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق هويكي ميراندا ومحمد الكتاني، تطوان، 1960، القسم 3، ص. 349-350.

(القصر الكبير) مركزا لحكمه على بلاد غمارة، والغرب (الأزغار)، والهبط عام 636 هـ، في الوقت الذي كانت فيه القبائل المرينية بقيادة أبي سعيد عثمان تنافس بني عبد المؤمن السلطة على هذه الجهات. وعوض أن يعمل بتوجيهات الرشيد – حسب رواية المصادر الإخبارية[2] من مفاوضة، وملاطفة بني مرين، دخل معهم في صراعات مفتوحة، فدبر اغتيال أبي سعيد عثمان المريني بموافقة أحد العلوج عام 633 هـ وتحالف مع بني عسكر ضد بني حمامة، ليهزم هو وحلفاؤه ويفر من أمامهم إلى فاس، ثم أحواز مكناس.

وبعد أن استجمع الطرفان قواهما التقيا مرة ثانية،وانهزم ابن وانودين على مشارف مكناس ليفر إلى قصر كتامة،ثم يلتحق بجبال هنتاتة مع عياله وبعض صحبه وذلك عام 637 هـ، وقد اتهمه الرشيد بمحاولة الاستبداد بالجهة الغربية والاستقلال بها عن الخلافة الموحدية، أسوة بالحفصيين. فاختفى في جبال هنتاتة،ولم يظهر على مسرح الأحداث إلا عند وفاة الرشيد بمراكش،فتقدم بيعة السعيد المعتضد علي بن ادريس المأمون في جمادى الآخرة 640 هـ وحسم بذلك الخلاف القائم بين السادة من بني عبد المؤمن، والأشياخ من الموحدين حول من سيخلف الرشيد. هذا السبق في البيعة للسعيد جعله مقربا من الخليفة ومهد الطريق أمامه للرجوع ثانية فاعلا قويا في الأحداث، إلى أن اعتقله السعيد وألقى به في سجن أزمور الذي فر منه ليصل إلى هنتاتة بمساعدة من زعيم عرب سفيان كانون السفياني. وعرج في الطريق على مراكش معلنا ومتحديا بفراره من سجنه وخاطبه السعيد بلطف، وطلب منه البقاء بجبله، فاستقر بعياله **بتيفنوت** إلى حين وفاته في 646 هـ.

يطرح مسار شخصية عبد الله بن وانودين الإشكالات الكبرى التي عرفها الحكم الموحدي، من النواحي السياسية والعسكرية والإدارية والمالية والمذهبية. ويتعلق الأمر بالدعامات التي قام عليها المخزن الموحدي بشريا.

سوف نركز على العناصر الواردة في ترجمة الرجل وهي فيما يبدو تختزل أهم مكونات الجهاز المخزني الموحدي الذي قام على السادة من أبناء عبد المؤمن وما كان موضوع توليهم الحكم يطرحه من حساسيات داخل البيت الحاكم وضمن الأشياخ

(2) ابن عذاري، البيان... 350/3.

الموحدين ودورهم وسط الجهاز الحاكم كقوة فاعلة منذ بداية الدولة، والقبائل العربية الوافدة على المغرب من الشرق والمتنافسة فيما بينها على المجال، والزعامة القبلية وأخيرا الروم أو المليشيات المسيحية الوافدة من بر الأندلس.

فهذه العناصر المتنافسة والمتدافعة لم تتوقف أصداء صراعاتها وتداعياتها عند حدود لحظات التحول، بل امتدت في المجال، والزمن إلى أبعد الحدود(3). وتختزل ترجمة عبد الله بن وانودين المختصرة من **البيان المعرب** لابن عذاري والممتدة على صفحات متفرقة (349—354 و358 -359 و365-370) كل هذه القضايا الكبرى للحكم الموحدي من بدايته إلى نهاية الدولة.

ولاية العهد والخلافة :

ظهر الصراع حول كرسي الخلافة في الدولة الموحدية منذ بداياتها الأولى، لكن حنكة وقوة وصلابة عبد المؤمن منعت خروجه من بين يديه، ومن عقبه فيما بعد. ليعود هذا الصراع من جديد مع هزيمة العقاب عام 609هـ /1212م. فما كانت هذه الهزيمة لتمر دون آثار على منصب الخلافة وولاية العهد، فالمستنصر تولى صبيا عمره لا يتجاوز عشر سنوات من 610هـ إلى سنة وفاته – وهو شاب – 621هـ ليطرح مشكل الخلافة من جديد. فاتفق الأشياخ على تولي عبد الواحد المخلوع ثم خلعوه وقتلوه بعد أن أمضى ستة أشهر في الحكم. وبايعوا عبد الله العادل عام621 هـ، وقتلوه عام 624 هـ وبايعوا يحيى بن الناصر وهو صبي ثم وردت البيعة على إدريس المأمون وهو بالأندلس ليقدم إلى المغرب، والبلاد تحت حكم خليفتين متنازعين إمارة المؤمنين.

واستمر نزاعهما طول فترة حكم إدريس المأمون 624- 629 هـ ليبايع عبد الواحد الرشيد منافسا ليحيى المعتصم حتى وفاة الأخير633 هـ وينفرد الرشيد بكرسي الخلافة إلى 640 هـ تاريخ وفاته. فما استطاع الرشيد أن يعيد بعض الاعتبار للدولة الموحدية حتى كانت افريقية خاضعة لبني حفص 627 هـ وشمال المغرب خاضع لبني مرين

(3) ابن صاحب الصلاة، **تاريخ المن بالإمامة**، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر ط 1، 3831 هـ/ 1964 م، ص. 338-347-353.

وتلمسان خاضعة لبني عبد الِواد، والأندلس تحت حكم أمراء يتقاتلون، وأطرافها يقتطعها القشتاليون والأرغونيون والبرتغال... فماذا بقي بيد أمير المؤمنين ؟[4].

حاول الرشيد (630– 640 هـ) أن يعيد الاعتبار للدولة الموحدية، وأن ينهض بشأنها بعد أن قضى على منافسه يحيى، فتحرك في بلاد المغرب باحثا عن دعم لسلطانه، فهزم يحيى وحلفاءه الخلط وحليفهم عمر ابن وقاريط وانضم إلى صف الرشيد عرب سفيان، وحاول ضم الأشياخ لصفه ففتح لهم أبواب قصره وقربهم إليه[5]، وطرد الخلط إلى سوس، ورد هجوم ابن واقاريط المدعوم من قبل ابن هود على سلا ورباط الفتح. ووصلته بعد أعماله وتحركاته بيعة أهل اشبيلية وأهل سبتة، وضم بفضل علاقات ودهاء عبد الله بن وانودين مدينة سجلماسة عام 635 هـ. لكن في المقابل أصبحت تونس مستقلة عام 633 هـ تحت حكم وإمرة أبي زكرياء يحيى الحفصي. وعاد الأشياخ إلى تدبير شأن الخلفاء بقوة بعد الرشيد فظهر على مسرح الأحداث بشكل قوي أبو محمد عبد الله بن وانودين الذي تزعم، وبكل جرأة، بيعة السعيد بعد أن وقع الخلاف حوله بين السادة من بني عبد المؤمن والأشياخ[6].

بوفاة الرشيد عقدت بيعة السعيد عام 640 هـ فسارفي نفس النهج مستغلا الاستقرار الذي عرفته البلاد، لكن فترة حكمه لم تدم طويلا إذ توفي في محاولته استرجاع سلطة الموحدين على تلمسان سنة 646 هـ[7].

الأشياخ الموحدون :

ينحدر معظم الأشياخ الموحدين من أبناء مناصري محمد بن تومرت، والذين نظمهم في مجالس أهمها مجلسان : مجلس العشرة، وهم المقربون والأصحاب ومجلس الخمسين : وهم أعضاء مجلس قبلي يضم الأشياخ الذين بايعوا ابن تومرت[8].

---

(4) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة ط، 3، 1414، هت 1993 م، 287-299.

(5) مهد لدخول الأشياخ في حلف الرشيد سعيد بن زكرياء الجدميوي، ابن عذاري البيان 3/304-306.

(6) ابن عذاري،البيان 3/359.

(7) Kably (M), Société, pouvoir et Religion au Maroc à la fin du Moyen-âge, Paris, Maisonneuve et Larose , 1986, pp. 41- 48.

(8) البيدق، **كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقبق عبد الوهاب بن منصور، الرباط،دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص. 28-36.

ونظرا لمكانة هذه المجموعة في جهاز المخزن الموحدي كمجموعة عملت على بناء الدولة، واكتسحت المجال الذي أخضعته لسلطتها، وخوفا من قوتها، عمل عبد المؤمن في إطار إيجاد توازن للقوى المشكلة للجهاز المخزني، على تكوين فئة جديدة من الطلبة، تنافس هؤلاء الأشياخ سلطتهم[9]، وسهر بنفسه على تكوينهم وتربيتهم، ليحد من سلطة الأشياخ الأوائل، الذين شكلوا الأداة العسكرية التي اعتمدها الموحدون لتطويع بلاد المغرب والقضاء على الدولة المرابطية.

ونظرا لما تحظى به هذه الفئة مبدئيا من توقير على الأقل في بدايات حكم بني عبد المؤمن، إذ لا تطالهم العقوبات بناء على توصية من ابن تومرت الذي ميز الموحدين الأوائل المبايعين والمناصرين، عن باقي الناس، فإنها كانت مصدر إزعاج لعبد المؤمن، ولخلفائه من بعده، وأداة فتنة مع ضعف الخلفاء واضطراب الأحوال. فما هي مراحل تطور فئة الأشياخ الموحدين ؟

*** المرحلة الأولى 516-549 هـ :**

من النماذج البارزة الدالة التي ناصرت ابن تومرت منذ البداية الأولى، المنتمية لقبيلة هنتاتة، وعائلة ابن وانودين : أبويعقوب يوسف ابن وانودين الذي بايع ابن تومرت عام 516 هـ وهو شيخ قبيلته آمن بدعوة ابن تومرت، ودافع عنها باستماتة، وكان أحد أفراد مجلس الخمسين، في الوقت الذي جمع أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي بين العضوية في مجلس الخمسين ومجلس العشرة.

شارك يوسف بن وانودين في المعارك التي خاضها ابن تومرت ضد المرابطين وشارك بصفته قائدا للجيش الذي تولى فتح المغرب الأوسط، بأمر من عبد المؤمن[10] من 537هـ إلى حين وفاته عام 544هـ[11]. وتولى من هذه الأسرة : سليمان

(9) مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ط 1، 1399هـ/1979م، ص. 151.

(10) البيدق، **أخبارالمهدي**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، سلسلة دخائر المغرب العربي، 1986، ص.. 82.

(11) البيدق، أخبار، ص. 100.

بن محمد ابن وانودين ولاية تلمسان بين 540هـ و549 هـ[12] ليتولى هذه الولاية السيد الأعلى أبو حفص عام 549 هـ وتولى الوزارة له أبو محمد عبد الحق ابن وانودين[13].

*** المرحلة الثانية 550- 580 هـ :**

إن اختيار سنة 550 هـ نقطة انطلاق لهذه المرحلة يصادف 25 سنة من حكم عبد المؤمن، وتجربة ربع قرن في الحكم فطنته بمكونات الجهاز المخزني الذي يرأسه والعناصر المتحكمة فيه، لذلك سهر بنفسه على تكوين الطلبة الحفاظ المرتبطين به شخصيا. وقد اختار منهم 3000 طالبا من مصمودة، وغيرها من نفس السن والطبقة. جمعهم في مركز للتكوين العسكري، والإداري وأشرف عليهم، وعلى تكوينهم بنفسه. فكانوا يحفظون كتب المهدي بن تومرت ويدخلون عليه القصر كل يوم جمعة «قصد بهم سرعة الحفظ، والتربية على ما يريده فيأخذهم يوما بتعليم الركوب ويوما بالرمي بالقوس ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة ويوما يأخذهم بأن يجدفوا على قوارب، وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة. فتأدبوا بهذه الآداب، تارة بالعطاء، وتارة بالآداب. وكانت نفقتهم، وسائر مؤونتهم، من عنده، وخيلهم، وعدتهم كذلك. ولما كمل له هذا المراد. عزل بهم الأشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال، والرياسة. وقال لهم : «العلماء أولى منكم»، فسلموا لهم، وأبقاهم معهم في المشورة. وكان ضمنهم ثلاثة عشر من أولاده. ولاهم على أعمال في : بجاية، وتلمسان، وفاس، وغرناطة...»[14].

ظهرت آثار هذا التوجه على عائلة بني وانودين في حدثين بارزين : **الأول** : تعيين السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن واليا على تلمسان، بعد عزل سليمان بن محمد ابن وانودين عنها، في إطار التعيينات التي قام بها عبد المؤمن للتخفيف من سطوة الأشياخ[15]، لكن أبناء الأشياخ المكونين في مدارس عبد المؤمن بدأوا يظهرون على الساحة إلى جانب السادة من بني عبد المؤمن. في هذا السياق تم تعيين

---

(12) البيدق، أخبار... ص.88 ابن عذاري، البيان... 18/3.

(13) عبد الرحمان ابن خلدون، **تاريخ العبر**... نشر البارون دوسلان، الجزائر، دار الطباعة السلطانية، 1263 هـ/1847م، 314/1.

(14) الحلل ص. 151.

15) ابن عذاري، **البيان** 18/3.

أبي محمد عبد الحق ابن وانودين وزيرا للسيد أبي حفص عمر الوالي على تلمسان[16]. **الثاني** : إقالة محمد بن يوسف بن وانودين، الذي عمل قائدا ميدانيا في الجيش بالأندلس، وتعرض هو وأبو زكرياء يحيى بن الشيخ أبي إبراهيم لنكبة[17] آخر أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في صفر عام 580هـ، نفي على أثرها محمد ابن وانودين إلى تونس. والذي يظهر من هذا النفي أنه يؤرخ للبدايات الأولى للتخلص من القادة الميدانيين أبناء الأشياخ الموحدين الكبار، والتي ستمهد لتولي أبي محمد عبد الواحد الهنتاتي أمر افريقية فيما بعد.

*** المرحلة الثالثة ما بعد 580 هـ :**

تمكن الأشياخ عن طريق التكوين في مدارس عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده، يعقوب من احتلال مراكز هامة في الجهاز المخزني المدني والعسكري. وقد تميزت بالصراع بين عبد الرحمان بن يوجان، وهو وزير وشيخ من هنتاتة وعثمان ابن جامع الوزير الداهية. وقد جرت هذه الصراعات على الدولة هزائم في الأندلس والمغرب الأوسط وافريقية أمام التحالفات المسيحية وبني غانية، وضيعت عليها قدرتها للسيطرة على المجال الذي أخضعت في ظرف وجيز، ليبدأ مسلسل الانشقاقات.فتولى عبد الواحد الهنتاتي أمر افريقية، ليرافقه أبو محمد عبد الله بن وانودين وظهر على الساحة العسكرية خلال هذه الفترة من أسرة بني وانودين : أبو علي الذي انهزم أمام بني مرين في النكور عام 613 هـ، والذي فتحت هزيمته الباب لهؤلاء – حسب مصادرهم الإخبارية – للعبور في اتجاه الشرق، بدعوى الدفاع عن أنفسهم، والمطالبين من سكان الغرب بحمايتهم[18]. وتميزت أخيرا بعودة عبد الله بن وانودين من تونس، بعد وفاة عبد الواحد بن عمر الهنتاتي عام 618 هـ.

واستطاع الأشياخ خلال هذه الفترة التكيف مع الوضع الجديد، بدمج أبنائهم، ضمن فئة المستفيدين من التكوين العلمي والمذهبي والعملي، مستغلين وضعهم

(16) البيدق، **أخبار**، ص.110.

(17) البيان، 3/132-133.

(18) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس...**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور للطباعة والنشر، 1971، ص. 283-284.

داخل الجهاز المخزني وعلاقات القرابة، والمصاهرة،التي تجمعهم بالسادة من بني عبد المؤمن، الشيء الذي جعلهم أداة مذهبية تحافظ على رسوم المهدي، لذلك لما تعرضت هذه الفئة على عهد المأمون للنكبة (624– 629هـ) كان من مظاهرها أيضا التخلي عن عقيدة المهدي[19]، فالانتكاسات التي تعرض لها الأشياخ أودت بحياة عدد هائل منهم، والأرقام التي تقدمها المصادر الإخبارية تعطي فكرة عن وزنهم العددي والمعنوي، بل أيضا قوتهم المادية، هذا دون الحديث عن من فر منهم أمام بطش المأمون إلى يحيى بن الناصر، أو إلى الجبال.

فما أن توفي المأمون عام 629 هـ، حتى بادر الأشياخ إلى استرجاع نفوذهم على عهد عبد الواحد الرشيد، الذي تولى صبيا كما تولى منافسه يحيى من قبل وقبلهما يوسف الثاني المستنصر. فولاية الصبيان من السادة أبناء عبد المؤمن والتي بدأت بوفاة الناصر عام 610هـ تلاها خلع عبد الواحد وقتله عام 621 هـ وقتل العادل الشيء الذي دفع إدريس المأمون إلى الانتقام من الأشياخ، لاعتبارات شخصية تتعلق ببيعته وأخرى موضوعية تتعلق بالخوف من الأشياخ وبطشهم لما فعلوه بسابقيه.

وقد ظهر من أسرة ابن وانودين على مسرح الأحداث في عهد المأمون ويحيى والرشيد، أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاتة، وعامل يحيى على مراكش 630 هـ، وأبو محمد عبد الله بن وانودين الذي التحق في البداية بيحيى على الأرجح عام 625هـ ليتخلى عنه عام 632 هـ. ويلتحق بعبد الواحد الرشيد[20] وبعده السعيد الذي تزعم بيعته من بين الأشياخ الموحدين المترددين في بيعته، لتسوء العلاقة بينهما حتى وفاتهما في 646 هـ.

الزعامات القبلية العربية :

ان استقرار القبائل العربية شرق الحدود الموحدية جعلهم مصدر إزعاج دائم للدولة منذ بدايتها الأولى، لذلك كان أول اتصال للموحدين بالقبائل العربية سنة

(19) أحمد عزاوي، **رسائل موحدية**، مجموعة جديدة، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة ط، 1، 1416هـ/1995م، 348/1.

(20) ابن عذاري، **البيان**، 350/3.

555 هـ،عندما اصطدم بهم عبد المؤمن بن علي الكومي في غزواته بالمغرب الأوسط وإفريقية. ومنذ ذلك الحين والدولة الموحدية تبحث عن صيغة لدمجهم في مشروعها بعيدا عن أي إزعاج، فكان الحل تفكيك هذه التكتلات المهددة لكيان الدولة، ومحاولة استعمالهم في الصراع مع النصارى في الأندلس وضد برغواطة في الداخل مضحين بالسهول الأطلسية على غناها[21] وإحداث توازن في العصبيات الداعمة للمخزن الموحدي خصوصا منها المصمودية الموحدية المسيطرة. لكن سرعان ما انقلبوا إلى أداة تخريب طالت مؤسسات الدولة، بل هددت وجودها. فما هي المحطات الرئيسة التي طبعت العلاقة بين الموحدين، والقبائل العربية ؟

*** المرحلة الأولى 555 -624 هـ :**

اختيار البداية مرتبط بأولى اللقاءات العسكرية بين القبائل العربية وعبد المؤمن عندما بدأ ضم المغربين الأدنى والأوسط. والنهاية مرتبطة بنهاية عبد الله العادل، والتحالف من جديد بين الميورقي والقبائل العربية ضد الموحدين في المجال الممتد من طرابلس إلى سواحل بجاية. بين هذين التاريخين كانت الرئاسة **لجشم** في فرع **سفيان**.

و لم تتوقف الهجرات العربية في الوفود على المغرب والأندلس ذلك أن يوسف استغل بسالة هذه القبائل العربية ليستعملها في الجهاد بالأندلس. لكن أكبر تهجير لها تم على يد يعقوب المنصور (680 – 695 هـ)، ذلك أن هذه القبائل ناصرت علي بن اسحق الميورقي عندما أعلن العصيان على الموحدين وتوجه إلى سواحل افريقية وكلف المخزن الموحدي تجهيز الجيوش التي خاضت معه معارك لم يكن النصردائما حليفها.

انهزم الموحدون أمامه في موقعة **عمرة** سنة 583 هـ وانتصروا في موقعة الحمة من نفس السنة. بعد وفاة علي بن اسحق الميورقي سنة 584 هـ، تولى أخوه يحيى بن اسحـق قيادة بني غانية وتمكن من السيطرة على طرابلس وقابس والمهدية وأخضع تونس بعد حصارها نهاية 599 هـ ليستسلم له أهلها بداية 600 هـ ويطرد عنها ويلاحق جنوبها حيث انهزم أمام عبد الواحد الهنتاتي في معركة **تاجرا** قرب قابس

(21) البيدق، أخبار، ص. 69-75، محمد القبلي، حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى بين منتصف القرن 12 ونهاية القرن 13 م، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، عدد مزدوج 21-22، ط، 1، 1418-1998م، ص.50 – 53.

سنة 602 هـ. فاتجه نحو الصحراء، ومنها إلى تلمسان 604 هـ، التي طرد عنها متراجعا نحو الشرق إلى طرابلس، فاعترضه بها عبد الواحد الهنتاتي وهزمه سنة 606 هـ.

استغل يحيى ابن غانية وفاة عبد الواحد الهنتاتي سنة 618 هـ ليعاود الظهور من جديد، ويسيطر على المجال الواقع بين طرابلس والقيروان، بل وصل إلى سواحل بجاية، لتشتد مطاردة أبي زكرياء يحيى الحفصي له حتى تم القضاء عليه سنة633 هـ. وبذلك ينتهي هذا الفصل من صراع الموحدين مع بني غانية والذي كان ثمنه إعلان انفصال بني حفص عن بني عبد المؤمن 633 هـ[22].

لقد نشأ صاحبنا في ظل هذا الصراع فهو إذن شاهد على جزء منه ومشارك فيه مباشرة من 603 هـ إلى 618 هـ أي مدة 15 سنة كأحد رجالات عبد الواحد الهنتاتي. ومن المحتمل جدا أن يكون له اتصال بهذه القبائل العربية خلال مقامه، أو على الأقل معرفة بهم وبأساليبهم في القتال والتفاوض وطريقة عيشهم،بمعنى آخر له دراية بمواطن ضعفهم وقوتهم[23].

أما ما ميز هذه الفترة في المغرب فهو استقرار القبائل العربية على طول الشريط الساحلي على امتداد الطريق الرابط بين العاصمة مراكش والبحر الأبيض المتوسط. بالخصوص قبائل رياح في بلاد الهبط والأزغار وجشم بفروعها المختلفة، وأهمها الخلط وسفيان في بلاد تامسنا ودكالة ورجراجة والحوز[24].

وكان من أهداف إدخالهم إحداث توازن ديموغرافي يوازي القبائل المصنفة غير الموحدة وبالخصوص المصمودية في السهول الأطلسية (دكالة وركراكة). وتحولت هذه القبائل مع مطلع القرن 7 هـ إلى جيوش تستعمل لصالح هذا الطرف أو ذاك في الجهاز المخزني،ثم فيما بعد لصالحها ضد المخزن نفسه، أوغيره من المنافسين لها في المجال أو السلطة وغيرها[25].

---

(22) عبد الإله بلمليح، بنو غانية، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، ج 18 ، ص. 6282-6286.

(23) أمره الرشيد عندما ولاه على الجهة الغربية بالاتصال بعرب إفريقية البيان
.Kably, Société..., op. cit, pp. 350/3 43-44

(24) G. Marçais, *La Berbérie musulmane et l'orient au moyen âge*, Casablanca, ed- Afrique- orient 1991, pp.285-291.

(25) G. Marçais, *Les arabes en Berbérie du XI^{e} au XIV^{e} siècle*, Constantine, Paris , éd - Ernest Leroux, pp. 327-343.

*** المرحلة الثانية 624- 646 هـ :**

تميزت بداية هذه المرحلة بدخول القبائل العربية معترك الحياة السياسية والعسكرية إلى جانب القوى المكونة للمخزن الموحدي، وذلك عندما هزم الخلط حلفاء هسكورة، جيش العادل. والنهاية بوفاة السعيد وعبد الله بن وانودين سنة 646 هـ.

أهم ما ميز هذه المرحلة عودة عبد الله بن وانودين إلى مسرح الأحداث في المغرب كشيخ من الشيوخ الهنتاتيين، له تجربة عسكرية وخبرة في مجال التسيير اكتسبها في العمل إلى جانب الهنتاتيين في المغربين الأدنى والأوسط. كان لهذا الشيخ اتصال بشيخ عرب سفيان كانون بن جرمون السفياني إذ كان صديقا حميما له[26].

فكيف استثمر عبد الله بن وانودين هذه الخبرة ؟ وما حدود علاقته بالقبائل الهلالية باعتبارها مكونا من مكونات الجهاز المخزني ؟

قبل الخوض في هذه العلاقة لابد من الإشارة إلى أن جشم تنقسم إلى قسمين كبيرين هما الخلط وسفيان، وتلحق بهما قبائل أخرى منها العاصم، وبنو جابر...

عندما دخل عبد الله العادل من الأندلس اختلفت حوله الخلط بزعامة شيخها هلال بن حميدان بن مقدم وسفيان وشيخها كانون بن جرمون، ولما فسدت علاقته بابن يوجان حليف الخلط انقلب عليه الخلط، وحلفاؤهم هسكورة الذين جهز لقتالهم جيشا هزموه سنة 624هـ. وعلى اثر هذه الهزيمة ظهرت معارضة له في صفوف الأشياخ انتهت بقتله[27]. ولما بويع يحيى بن الناصر والته قبائل سفيان وناصره الشيخ عبد الله بن وانودين حليف سفيان. فاتصل منافسه أبو العلاء إدريس المأمون – وهو بالأندلس – بابن يوجان حليف الخلط لتمهيد البلاد بالفتنة، فلما علم بهذا التحالف يحيى قتل ابن يوجان وتحصن بمراكش ووصلت بيعة أمير الخلط هلال بن حميدان إلى المأمون وهو بالأندلس فجاز البحر إلى المغرب في سنة 626 هـ[28] ليطرد يحيى بن الناصر من مراكش ويستولي على زمام الأمور معتمدا على عرب الخلط وشيخهم هلال بن مقدم، وفرقة من الروم الوافدين معه من الأندلس[29].

---

(26) ابن عذاري، **البيان** 369/3.

(27) العبر 1، 340-341، البيان 252/3.

(28) ابن عذاري، **البيان** 264/3.

(29) **البيان**، 265/3.

فاصطدم جيشه بجيش يحيى في رمضان عام 627 هـ معتمدا على عرب الخلط في الوقت الذي ناصرت سفيان يحيى، وكانت الهزيمة على يحيى بن الناصر. عندما خرج المأمون لاسترجاع سبتة،اقتحم يحيى مراكش على سكانها فأحرق كنيسة الروم انتقاما منهم[30]، وفي طريق عودته إلى مراكش مات المأمون وبويع ابنه بتدبير من حباب الرومية أم الرشيد، وقائد الروم، وأشياخ الخلط وعلى رأسهم أميرهم هلال بن حميدان مهل محرم 630 هـ، وهزم الرشيد جيش يحيى وطردهم عن مراكش هم وحلفاؤهم من هنتاتة[31] وضمنهم عبد الله بن وانودين وأبو السعيد ابن وانودين والي مراكش على عهد يحيى بن الناصر وحلفاؤهم عرب سفيان يتقدمهم شيخهم جرمون بن عيسى السفياني[32].

لما دخل الرشيد مراكش منتصف محرم 630 هـ قرب إليه الخلط وأطلق يدهم في أموال سفيان وتكاثرت عليه الوفود من الخلط، لكن عمر ابن واقريط الهسكوري استطاع أن يفسد العلاقة بين الرشيد والخلط خصوصا عندما بدأ الموحدون يفدون على الرشيد بتشجيع من أبي عثمان سعيد بن زكرياء الجدميوي الذي توسط في هذا الرجوع بعد جفاء بسبب ما قام به والده من إقصاء للأشياخ، واعترض مسعود بن حميدان الخلطي طريق الوافدين على الرشيد، وكان فعله هذا سببا في الخلاف بينه وبين الرشيد[33].

وقد أفسدت مخالفة ابن حميدان للرشيد ما كان بينهما من ود، فدبر الرشيد الحيلة في استدراجه والفتك به[34] وتمكن الأشياخ بذلك من الرجوع إلى مراكش، فأحدث بهم توازنا في القوة[35] لكن هذه الإجراءات ألبت عليه الخلط بقيادة أميرهم يحيى بن هلال بن حميدان سنة 633 هـ،والذين حالفوا نده يحيى، وشيخ هسكورة عمر ابن واقريط.

(30) **البيان**، 281/3. حول هذه الكنيسة يمكن الرجوع إلى P. de Cénival, L'Eglise chrétienne de Marrakech au XII^e siècle, Rabat, *Hespéris* T, VII, 1927, pp. 69-84.

(31) **البيان**، 282/3.

(32) **البيان**، 284/3.

(33) **البيان**، 297-296/3.

(34) **البيان**، 304-298/3.

(35) **البيان**، 305/3.

وقد تمكن هذا الحلف من طرد الرشيد عن مراكش فالتجأ إلى جبال مصمودة، ساعده على خروجه بثه الفتنة بين الخلط وسفيان[36]. فدخل عبد الله بن وانودين مراكش مع يحيى، في حين استقر الرشيد سنتين في سجلماسة[37].

استطاع الرشيد الدخول من جديد إلى مراكش سنة 633 هـ معتمدا على الروم وتحالفه مع عرب سفيان وشيخهم جرمون بن عيسى السفياني بعد أن هزم يحيى وحلفاءه الخلط، وأسكن منافسيهم سفيان أراضيهم وأطلق يدهم في ممتلكاتهم في الحوز وتامسنا[38].

انتهى هذا الصراع بقتل يحيى على يد عرب المعقل بين فاس وتازة عام 634 هـ وتفرق جمع الخلط. واستطاع عمر بن واقريط الفرار إلى الأندلس مبايعا ابن هود. مهد هذا الوضع الطريق للرشيد للقيام بمحاولة جديدة لإعادة الاستقرار بربوع المغرب، فتحرك نحو الشمال فضمن ولاء بلاد فزاز (الأطلس المتوسط) وغمارة (الشمال الغربي) رغم منافسة بني مرين،هذا في الوقت الذي تمكن فيه عبد الله بن وانودين وهو وال على درعة إخضاع سجلماسة لسلطة الرشيد بعد طرده للمخالف على الرشيد بها أبو محمد عبد العزيز الوالي عليها[39].

تمكن الرشيد سنة 635 هـ من اعتقال بعض أعيان الخلط واستدرج باقيهم للإيقاع بهم، وكسر شوكتهم فقتل أشياخهم، وحليفهم عمر ابن واقريط وأطلق يد أعدائهم من سفيان وبني جابر فيهم ونفى باقيهم إلى جنوب مراكش بالسوس[40].

واتخذ السعيد (640 – 646 هـ) من الخلط وبني جابر حلفاء له عكس والده الرشيد، وانعكس هذا على علاقته بأبي محمد عبد الله بن وانودين حليف سفيان، ولم يدم هذا التحالف طويلا إذ اعتقل عبد الله بن وانودين وسجن في آزمور وساءت العلاقة بين عرب سفيان والسعيد.

---

(36) **البيان**، 3/310-311.

(37) عندما هزم يحيى الخلط أطلق يد عرب سفيان في بلاد صنهاجة، وتاسغرت ودكالة ورجراجة التي كانت واقعة تحت نفوذ الخلط البيان 3/352.

(38) **البيان**، 3/324-325.

(39) **البيان**، 3/331.

(40) **البيان**، 3/342-357.

مكنت المودة بين كانون بن جرمون السفياني، وعبد الله بن وانودين من فرار الأخير من معتقله بآزمور، وتمنعه في جباله بهنتاتة من سنة 642 هـ إلى وفاته 646 هـ وانحاز عرب سفيان إلى بني مرين ضدا على تحالف الخلط مع السعيد[41].

الروم في الجيش الموحدي :

ترجع علاقة الروم بالدولة الموحدية إلى البدايات الأولى لهذه الدولة عندما تواطأ الروم العاملون في الجيش المرابطي والساهرون على جزء من أمن المدينة مع عبد المؤمن لتسهيل فتحها. فهل دام هذا التحالف ؟ وما خط تطور علاقة الحكم الموحدي بالجيش الرومي ؟ سنحاول رصد هذه العلاقة، مع إبراز علاقة ابن وانودين بالروم، وعليه يمكن أن نميز بين مرحلتين أساسيتين.

*** المرحلة الأولى من 541 إلى 624 هـ :**

تاريخ البداية هو تاريخ فتح عبد المؤمن لمدينة مراكش باتفاق بين عبد المؤمن وبين قائد الحامية الرومية بمراكش.

عمل عبد المؤمن على تجنيد هذه الفرقة ابتداء من 542 هـ ضمن الجيش الموحدي وشارك الروم في إخماد ثورات سوس التي قادها محمد بن هود الماسي[42] وثورة دكالة التي تم القضاء عليها في عام 544 هـ[43].

واستقدم يوسف بن عبد المؤمن (558 — 580هـ) الروم من الأندلس فجاز لخدمته Geraldo Sempavor من البرتغال على رأس فرقة من 350 فارسا، استعملت في قمع الثورات، لكن مصير هذا القائد انتهى بقتله عندما تبين أنه يعمل لصالح ملك البرتغال الفونسو هنركيز (ابن الرنك)، وذلك عام 565 هـ[44]. ورغم كل هذا فإن الاعتماد على الروم في الجيش الموحدي لم يكن كبيرا، ولهذا كانت الإفادات عنه في الفترة الممتدة من 524 هـ إلى 624 هـ قليلة[45].

---

(41) **البيان**، 372/3.
(42) ابن خلدون، **تاريخ العبر** 308/1.
(43) البيدق، **أخبار**، ص. 100.
(44) رشيد السلامي، الروم في الجيش المغربي الوسيط، **معلمة المغرب** ج 13 ص : 4482 .
(45) مصطفى نشاط، الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية، ضمن أعمال ندوة **الغرب الإسلامي والغرب المسيحي**، الرباط، 1995 ص. 119.

*** المرحلة الثانية 625 -646 هـ :**

البداية مرتبطة بجواز إدريس المأمون من الأندلس إلى المغرب، ومعه جيش من الروم، والنهاية وفاة السعيد وعبد الله بن وانودين، وبداية تحول الروم عن الموحدين لخدمة بني مرين.

يقول علي بن أبي زرع «... فبعث (فرناندو الثالث) إليه (إدريس المأمون) جيشا كثيفا من إثنى عشر ألف فارس من النصارى، برسم الخدمة معه والجواز إلى العدوة **فهو أول من جوز الروم إلى العدوة واستخدمهم بها**. فوصله الجيش في شهر رمضان من سنة ست وعشرين وستمائة»[46]. من المعلوم أن استخدام الجيش الرومي في المغرب أقدم من التاريخ المذكور، إذ بدأ بالعمل مع المرابطين، ذلك أن علي بن يوسف بن تاشفين كان «أول من استعمل الروم بالمغرب وأركبهم، وقدمهم على جباية المغارم[47]. فلماذا هذا الإلحاح من أبي زرع على أولوية استخدام الجيش على عهد المأمون ؟ لربما يكون الجواب فيما قدمه هو نفسه من عدد من وصل مع المأمون من الفرسان والذين قدرهم ب 12000 فارس، والذي لم يؤكده مصدر آخر تناول الموضوع بل حصره ابن عذاري في 500 فارس[48].

وقد يكون في الاتفاق المبرم بين المأمون وملك قشتالة فيرنادو الثالث، فهذه المرة لم يكن المجندون أفرادا مستقلين يرتزقون بالجندية،وإنما هم جنود يرسلهم ملكهم لخدمة المأمون[49]. وأخيرا ربما تكون الشروط التي انفرد بتفصيلها ابن أبي زرع وراء هذا السبق. فقد اشترط فيرناندو الثالث أن تسلم له 10 حصون يختارها وأن تبنى كنيسة بمراكش للجنود.ألا تسري أحكام الإسلام على النصارى. إذا أسلم نصراني يرد إلى إخوانه وإذا تعمد مسلم لا يرد. فربما كانت كل هذه الحيثيات وراء هذا السبق؟ فما الذي يدفع المأمون إلى قبول كل هذه الشروط لاستعمال الجيش الرومي؟

(46) **روض القرطاس**، ص. 251.
(47) **الحلل الموشية**، ص. 84.
(48) **البيان**، 164/3.
(49) ورغم ذلك فقد سبق واتفق يوسف بن يعقوب مع ملك البرتغال على جواز 350 فارسا. رشيد السلامي، **معلمة المغرب** ج 13 ص..4483.

تقدم كل المصادر وبإجماع وصول بيعة الموحدين إلى المأمون وهو بالأندلس، بعدها تخلى الأشياخ عنه لصالح ابن أخيه يحيى بن الناصر، فتلاعب الأشياخ بالأمراء. وهو ما دفعه إلى الاعتماد على الروم خصوصا وأنه لا يضمن ولاء العرب الخلط[50]. فالتجأ إلى المرتزقة الروم. وتمكن معتمدا عليهم من فتح مراكش سنة 627هـ. خلال فترة حكم المأمون كان الاعتماد أساسا على الروم، وقد ناصب العداء لسفيان والأشياخ، لذلك عندما دخل يحيى مراكش هدم كنيسة الروم[51].

أما الرشيد فلم تكن بيعته لتتم لولا دعم قائد الروم مرقسيل Sancho el Franci، واعتمادا عليهم وعلى الخلط تمكن من دخول مراكش وطرد يحيى بن الناصر منها سنة 630هـ. وبلغت سطوة الروم على الخليفة حدا جعل بعض الخاصة من العلماء والفقهاء بل ورجال الدولة يستنكرون هذا الوضع وفي هذا السياق نكتفي بما قاله ابن عمير المخزومي :

والقـــرن ولى عنكم ومبصـــره — يتلـــو عليه «والليل إذا أدبـــر»
يمشي في الـــروم بين زعنفــــــة — فيـــه وفيهم يحـــار من له فكـر
ومـا رأى النـــاس مثله عجـــبا — أبرهــة حـــوله بنو الأصــفر[52]

برز على عهد الرشيد من القادة الروم مرقسيل، وأبو ضربة[53]، وعنصالة[54].

كان الروم حاضرين في المدن الكبرى مثل سجلماسة، وفاس التي أسند أمر قصبتها لزنار، وشديد الرومي، وترك معهما 200 فارس، وبقيا فيها إلى سنة 647 هـ، عندما انتقل حكمها إلى بني مرين[55]. وحضر مع أبي محمد عبد الله بن وانودين معركة

(50) انقلب الخلط على ولده سنة 632 في الوقت الذي دافع عنه الروم. البيان 3/307-308.
(51) **العبر** 344. 1. أحمد عزاوي، رسائل موحدية، 1/387-389.
(52) محمد بن شريفة، **أبو المطرف بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره**، الرباط، مطبعة الرسالة، 1385 / 1966، ص.145.
(53) ابن ابي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص.60.
(54) البيان، 3/307. رصد رشيد السلامي، الروم العاملين في الجيش المرابطي، والموحدي والمريني ضمن قائمة منهم 11 قائدا عملوا في الجيش الموحدي، معلمة المغرب ج 13 / ص. 4485.
(55) **البيان**، 3/315. الذخيرة،ص. 74-75.

بأحواز مكناس ضد بني مرين القائد الرومي أبو ضربة وذلك سنة 638 هـ، وهزم المرينيون الجيش الموحدي بكورت سنة 639 هـ، وضمن الجيش فرقة من الروم[56].

استمر وجود جيش الروم ضمن الجيش الموحدي على عهد السعيد لكن كثرة الراغبين في السيطرة على المجال المغربي، خصوصا بنو مرين، وبنو حفص، وإضافة إلى بني زيان جعل هؤلاء المرتزقة يعملون مع من يدفع أكثر. وكان الأمير أبو معرف محمد بن عبد الحق المريني من ضحايا هذا **التجاذب** إذ تلقى طعنة على يد الفارس الرومي خوان غيطان في جمادي الثانية سنة 642 هـ[57]. وترأس ابن القمط فرقة الروم في جيش السعيد[58]. بمقتل السعيد تفرق ولاء الروم بين الموحدين والمرينيين، وبني زيان، وكانت الكفة ترجح لصالح بني مرين رغم ميل بعض الروم إلى الموحدين[59].

تبين من خلال هذه القراءة في مسار حياة عبد الله بن وانودين المهنية باعتباره أحد الشيوخ الكبار في الجهاز المخزني الموحدي، والتي امتدت من 603 هـ إلى 646 هـ أي 46 سنة، أن الرجل عاصر فترة التراجع التي أفضت إلى استقلال إفريقية ثم المغرب الأوسط، والأندلس، وشمال المغرب، فبوفاته لم تعد للموحدين أية سلطة على فاس التي استحوذ عليها المرينيون واتخذوها عاصمة لهم وبالتالي عاصمة للمغرب الأقصى. و لم يعد يفصلهم عن السيطرة على مراكش سوى 22 سنة. ولن تستعيد مراكش مكانتها كعاصمة إلا مع السعديين.

كما تبين لنا أن الجهاز المخزني الموحدي بني على تدافع إن لم نقل تناقض أربع مكونات رئيسية لازمته حتى نهايته بل إنها ساهمت في القضاء عليه وهي :

الأشياخ الموحدون الذين كان لهم السبق في بيعة المهدي ابن تومرت ابتداء من سنة 615 هـ، وهم رجال ميدانيون تمرسوا بالقتال، ودافعوا عن المهدي وعقيدته إلى أقصى الحدود بل جعلوها رمز وجودهم، ولحمة اجتماعهم، ومصدر قوتهم، واعتبارا للمكانة التي حظي بها هؤلاء، وما شكلوه من خطورة على برامج

(56) **الذخيرة**، ص.60.

(57) **الذخيرة**، ص.63.

(58) **الذخيرة**، ص.62.

(59) لما ملك أبو بكر المدينة – فاس– أقرهما – زنار، وشديد– ومعهما 200 فارس من الروم وكانا مائلين بهواهما إلى الموحدين أي إلى عمر المرتضى وذلك سنة 647 هـ الذخيرة، ص. 75.

ومخططات الخليفة عبد المؤمن، فإنه عمل على تأسيس مراكز لتكوين رجال المخزن لتعويض هؤلاء الأشياخ، وفي تصريحه لهم عن هدف التكوين ما يدل على ذلك «العلماء أولى» بتولي المناصب العليا من الأشياخ، وقد استفاد أبناء الأشياخ من التكوين في هذه المدارس إضافة إلى عناصر أخرى كانت من اختياره يضمن بها الولاء له ولبنيه السادة من بعده.

استطاع عبد المؤمن أن يضمن استمرار الحكم في بنيه ابتداء من سنة 549 هـ عندما تم تعيين أبناءه على المدن والجهات، وضمن لابنه محمد ولاية العهد، لكن هذا الأخير تخلى عنها لصالح يوسف. كل هذا تم ضمن توافقات وتنازلات من عبد المؤمن والأشياخ وسمح للسادة أبناءه بالتعايش فيما بينهم وبين الأشياخ الموحدين ما دام الجهاز المخزني قويا، ومصالح الجميع مرعية.

لكن التحول الذي أحدثه انهزام الموحدين في العقاب عام 609 هـ أدى إلى تراجع سلطة الخلفاء الموحدين لصالح العناصر الأخرى المشكلة للجهاز المخزني الموحدي، الذين يعينون الضعاف من الأمراء، ولم يشكل الاستثناء إلا المأمون، والرشيد، والسعيد الذين حكموا بين 624 هـ و646 هـ مع ما عرفوه من مشاكل مع الأشياخ والقبائل العربية.

كانت القبائل العربية صعبة المراس بالنسبة للسادة أبناء عبد المؤمن نظرا لأسلوب عيشها والتناقضات التي تحكمها كعشائر متناحرة. فكان من نتائج هذا التناحر عليها هي أولا إضعاف بعض عناصرها، بل القضاء عليهم، من هذه العناصر بنو جابر، وبنو العاصم، ومن صراعها مع بني مرين القضاء الشبه نهائي على قبيلة رياح، والتي كانت أقوى القبائل في القرن السادس الهجري بالمغرب وقد تمت الاستعانة بها من قبل الموحدين[60]. كما تعربت دكالة، ورجراجة وذابت هسكورة في الخليط القبلي السرغيني. وانحاز بنو عاصم وبنو جابر إلى دير الأطلس. هذا ناهيك عن تغير نمط عيش سكان بلاد مصمودة الوطأ (السهول الأطلسية)، من مزارعين وبحارة، إلى رعاة ينتجعون في مجال كان مجال استقرار

(60) يمكن الرجوع إلى مقال لي تحت عنوان أوائل المرينيين والأزغار سينشر ضمن أعمال ندوة الغرب : التاريخ والمجال، القنيطرة.

وزراعة، فلا غرابة أن يولوا الأدبار للبحر وأهواله ! أما نتائجها على بني عبد المؤمن فكان تغير الولاء من أمير لآخر حسب ما تقتضيه المصلحة، لكن الثابت هو عدم اجتماع الفصيلين المهمين لجشم (سفيان والخلط تحت راية واحدة)[61]، وهذا جر متاعب كبيرة على السادة أبناء عبد المؤمن مما اضطر المأمون إلى اللجوء إلى المكون الرابع والأخير، جيش الروم.

لم يكن جيش الروم غريبا عن الجهاز المخزني المغربي بل هو من أقدم المكونات إلا أن أهميته لم تظهر إلا مع المأمون عام 624 هـ الذي جعل منه أهم مكون في الجيش عليه معتمده، فحارب به الأشياخ والعرب على حد سواء، وبما أن هذا الجيش مرتزق وولاؤه لمن يدفع له أكثر، فهو بالتالي جسم غريب في قلب جهاز يستمد مشروعيته من الإسلام، ورئيس الجهاز هو أمير المؤمنين. فلم يكن السكان المسلمون يستسيغون تولي غير المسلمين أمور دينهم خصوصا عندما يتعلق الأمر بجمع الأموال. وقد ساهم بشكل فعال في الفتنة بين الأمراء، وبينهم وبين المنافسين من بني مرين، وبني زيان... بل كان مرتبطا عضويا بالمصالح الإيبيرية في المغرب، وهذا أخطر[62] !

(61) حسن حافظي علوي، مادة جشم، **معلمة المغرب**، ج 9، ص. 3028-3031.

(62) Ch. E. Dufourcq, Un projet castillan du XIII^{e} siècle : La croisade de l'Afrique, *R.H.C.M.*, publication de la société Algérienne, Alger, n° 1, 1966.